

أثر عربي ثمين

« في مبحث الصوت ، وأسباب حدوث الحروف »

مما يقوله بعضهم في الموازنة بين علم الشرق في الزمن الغابر ، وعلم الغرب في الوقت الحاضر ، أن تقدم العلم الغربي مسير في الغالب بيد الصناعة ، وأن للغاية الاقتصادية تأثيراً على مبدئه . فهو مثل الحضارة الغربية عملياً أكثر منه نظرياً ، وإلى المادي أقرب منه إلى الأدبي . أما العلم الشرقي فإن مدينة الشرق لم تنح به نحواً خاصاً . ولذلك كان ينمو مع المدارك البشرية على قدرها . ولو أتيج له الاستمرار في طريقه حتى يدرك عصر الطباعة والبخار والكهرباء ، لكان له في المستقبل شأن غير شأنه في الماضي

هذا ما يقوله بعضهم في الموازنة بين العلمين ، ويقولون زيادة على ذلك إن العلم النظري لم يبلغ في أوربا اليوم المنزلة التي بلغها في آسيا من قبل . ولعل الخطأ الأول الذي خطر لي عند اطلاعي على رسالة الرئيس أبي علي الحسين بن سينا في أسباب حدوث الصوت والحروف كان من هذا القبيل ، فقد قلت في نفسي ساعتئذ : « لماذا تفيض الفلسفة الطبيعية الحديثة في بيان أشكال النور وألوانه وتحلله وتركبه عند مروره بالمشور البلوري ، مثلاً ، ولا تفيض هي أو الفنون المتفرعة عنها في بيان أشكال الصوت وأوصافه عند مروره بالحنجرة وعبث اللسان به في أطراف الفم ، كما فعل ابن سينا قبل تسعمائة سنة في الكتاب الذي هو موضوع بحثنا الآن ؟ »

نتهي إلى كتاب ابن سينا عالم جليل محقق ، فرأيت من أنفس مدخرات خزانة العالم الفاضل أحمد نيمور بك ، ولكنه ، وأسفاه ، قد تناولته يد التحريف والنصحيف حتى لا يكاد الانسان يثق ببقاء جملته منه على أصلها . فزادني هذا الأمر شوقاً إلى نشره وإحيائه تعريفاً للخلف بماثر السلف ، وإعلاماً بما للعرب

من فضيلة السبق في تحقيق أسباب حدوث الصوت ، وخدمة لغة بلغت الانظار الى مبحث آخر من مباحثها ، وهو أسباب حدوث الحروف وكيفية حدوثها واصلنا البحث عن نسخة ثانية من هذا الأثر العربي الثمين ، واستعنا بكثير من الاخوان ، الى أن عثر صديقي المسيو لويس ماسينيون أستاذ تاريخ مذاهب الفلسفة العربية في الجامعة المصرية على اسم هذا الكتاب في فهرس المكتبة البريطانية في لوندرة ثم أراد أن يكون عمله أكمل فكتب الى من أخذ لنا نسخة فطوغرافية منه ، فاذا هي لا تقل عن النسخة الأولى تحريقاً ، إلا أن معارضة النسختين ومراجعة الكتب التي نقل أصحابها عن رسالة الحروف لابن سينا مثل كتابي المواقف والمقاصد ، وكتاب التفسير الكبير للفخر الرازي ، ومبحث تشريح الخنجرة واللسان من قانون ابن سينا ، قد صححت لنا الأغلط التي يظهر أنها هي التي حالت دون عناية المستشرقين بنشر الكتاب : فظهرت لنا من كليهما نسخة تغلب الصحة عليها ، ويطنن القلب اليها



الرسالة اسمها « أسباب حدوث الحروف » وهي في ستة فصول هذا بيانها :

الفصل الأول - في سبب حدوث الصوت ،

الفصل الثاني - في سبب حدوث الحروف ،

الفصل الثالث - في تشريح الخنجرة واللسان ،

الفصل الرابع - في الأسباب الجزئية لحرفٍ حرفٍ من حروف العرب ،

الفصل الخامس - في الحروف الشبيهة بهذه الحروف وليست في لغة العرب ،

الفصل السادس - في أن هذه الحروف من أي الحركات غير النطقية قد

تُسمع



يقول ابن سينا في سبب حدوث الصوت :

أظن أن الصوت سببه القريب تموج الهواء دفعة وبقوة وبسرعة من أي

سبب كان . ثم ذلك الموج يتأدى الى الهواء الراكد في الصماخ فيموجه فتحس به العصبه المفروشة في سطحه

والذي يشترط فيه من أمر القرع عساه أن لا يكون سبباً كلياً للصوت ، بل كأنه سببٌ أكثرى ؛ ثم إن كان سبباً كلياً فهو سببٌ بعيدٌ ، ليس السبب الملاحق لوجود الصوت ، والدليل على أن القرع ليس سبباً كلياً للصوت أن الصوت قد يحدث أيضاً عن مقابل القرع وهو القلع

فاذن العلة القريبة - كما أظن - هو التمرج

فالتمرج نفسه - كما يقول ابن سينا - هو الذي يفعل الصوت

وأما حال التمرج من جهة الهيئات التي تستفيدها من الخارج والمحابس في

مسلكه فتفعل الحروف

وتعريف الحرف في كتاب ابن سينا « هو هيئة للصوت عارضة له يتميز بها

عن صوت آخر مثله في الحدّة والثقل تميزاً في المسموع »

والحروف بعضها - من حيث الصوت - مفردة ؛ وبعضها مركبة . فالمفردة

تحدث عن حركات تامة للصوت - أو للهواء الفاعل للصوت - تتبعها اطلاقات

دفعة ، والمركبة تحدث عن حركات غير تامة لكن تتبعها اطلاقات

والمفردة تشترك في أن وجودها وحدوثها في الآن الفاصل بين زمان الحبس

وزمان الاطلاق ، وذلك أن زمان الحبس التام لا يمكن أن يحس فيه بصوتٍ حادث

عن الهواء وهو مستكن بالحبس ، وزمان الاطلاق لا يحس فيه بشيء من هذه الحروف

لأنها لا تمتد البتة انما هي مع ازالة الحبس فقط

وأما الحروف الأخرى فانها تمتد زماناً ، وتنفى مع زمان الاطلاق التام ، وانما

تمتد في الزمان الذي لا يجتمع فيه الحبس مع الاطلاق

♦ ♦

ويقول ابن سينا في تشریح الحنجرة انها مركبة من غضاريف ثلاثة :

١ - الغضروف الدرقي ، وهو موضوع الى قدام ويناله الحبس في المهازيل

عند أعلى العنق تحت الذقن . وشكاه شكل القصعة ، حذبه الى خارج والى قدام
وتعبيره الى الداخل والى خلف ،

٢ - عديم الاسم ، وهو خلف الدرقي مقابل سطحه ،

٣ - الفضروف الطهر جاري ، وهو كقصعة مكبوبة على الفضروفين السابقين
ويقول في تشرح اللسان انه مركب من ثنائي عضل : اثنتان تأتيان من الزوائد
السهمية التي عند الأذن يمنة ويسرة ، وتتصلان بجانبى اللسان ، فاذا تشنجتا
عرضتا . واثنتان تأتيان من أعالي العظم اللامي وتغذان وسط اللسان ، فاذا تشنجتا
جذبنا جملة اللسان الى قدام فبعضها جزء منه وامتد وطال . واثنتان من العضلين
السالفين من أضلاع هذا العظم تغذان بين المعرضين والمطولين ويحدث عنهما
توريب اللسان . واثنتان موضعتان تحت هاتين واذا تشنجتا بطحتا اللسان

هذا ملخص الفصول الثلاثة الأولى ؛ وكأها مقدمات لبيان كيفية حدوث كل
حرف من الحروف العربية والحروف الأخرى التي توجد فيما عرفه ابن سينا من
لغات آسيا المنتشرة بومئذ في فارس وإيليا

وهو يقول مثلاً في بيان كيفية لفظ حرف الخاء انه يحدث من ضغط الهواء الى
الحد المشترك بين اللهاة والحنك ضغطاً قوياً مع اطلاق ، تهتز فيما بين ذلك رطوبات
يعنف عليها التحريك الى قدام ، فكأما كادت تجبس الهواء زوحت ، وقسرت
الى خارج في ذلك الموضع بقوة

والقاف يحدث حيث تحدث الخاء ولكن بجبس تام . وأما الهواء فقدهاره
ومواضعه فذلك بعينه

ويقول في كيفية لفظ الجيم انه يحدث من جبس تام بطرف اللسان ويتقرب
للجزء المقدم من اللسان من سطح الحنك المختلف الأجزاء في التواء والانحناء مع
سعة من ذات اليمين واليسار واعداد الرطوبة ، حتى اذا أطلق نفذ الهواء في ذلك
المضيق نفوذاً يصفر لضيق المسلك ، إلا انه يتشذب لاستعراضه ويتم صفيحة خال

الأسنان وتنقص من صغيره وترده الى الفرقة الرطوبة المندفعة فيما بين ذلك متفحمة ، ثم تنفقا ، الا أنها لا يمتد بها التفقع الى بعيد ولا تتسع ، بل تفوقها في المكان الذي يطلق فيه الحبس

والشين تحدث كما يحدث الجيم بعينه ولكن بلا حبس البتة ، فكأنما الشين جيم لم يحبس وكان الجيم شين ابتدأت بحبس ثم أطلقت

ويقول في كيفية لفظ الصاد ان الذي يفعله هو حبس غير تام أضيق من حبس السين وأيسر وأكثر أجزاء حابس طولاً الى داخل مخرج السين والى خارجه حتى يطبق اللسان أو يكاد يطبق على ثلثي السطح المفروش تحت الحنك والمنخر ويتسرب الهواء عن ذلك المضيق بعد حصر شيء فيه من وراءه ويخرج من نخل الأسنان

وأما السين فتحدث عن مثل حدوث الصاد إلا أن الحابس من اللسان فيه أقل طويلاً وعرضاً فكأنها تحبس العضلات التي في طرف اللسان ، لا بكليتها بل بأطرافها

ويقول في وصف الفاء التي تكاد تشبه الباء (ف - V) انها تقع في لغة الفرس عند قولهم (فرندي)^(١) تفارق الباء لانه ليس فيها حبس تام . وتفارق الفاء بأن تضيق مخرج الصوت من الشفة فيها أكثر وضغط الهواء أشد حتى يكاد يحدث بسببه في السطح الذي في باطن الشفة اهتزاز

ومن ذلك الباء المشددة (ب - P) الواقعة في لغة الفرس عند قولهم (بيروزي)^(٢) وتحدث بشد قوي للشفتين عند الحبس وقلع بعنف وضغط الهواء بعنف

• •

وأما الفصل الأخير فهو من أغرب المباحث وألطفها وأكثرها حاجة الى الدرس

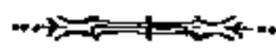
(١) فارسية بمعنى جواهر السيف وقد عربت . والفرس يلفظونها الآن « برند » . وقد زال من لغة الفرس حرف (ف) بعد ابن سينا ولم يبق الا في لغة قبائل الكرد
(٢) بمعنى الانتصار والظفر

والبحث والتدقيق لأن ابن سينا حاول أن يأتي فيها لكل واحد من الحروف العربية بما يشبهه من الحركات الغير النطقية ، مثل صدور صوت يشبه حرف القاف عن شق الأجسام وقلمها . والفين عن غثيان الرطوبة في أجزاء كبار تندفع الى جهة واحدة . والكاف عن قرع كل جسم صلب كبير على بسيط آخر صلب مثله . والشين عن نشيش الرطوبات وعن نفوذها في خلل أجسام يابسة نفوذاً بقوة . والطاء عن تصفيق اليدين بحيث لا تنطبق الراحتان بل ينحصر هنالك هوائاً له دوي .
والفاء عن قرع الكف بأصبع قرعاً بقوة . والفاء عن حفيف الأشجار



و بعد فان الذي يطالع الرسالة كلها يظهر له أن ابن سينا كان جديراً بأن يقول في آخرها : « اني قد بلغت الكفاية ، وعبرت عن المقدار الذي تبلغه مني المعرفة » . وقد أهداها الى الاستاذ أبي منصور محمد بن علي بن عمر الخيام وهو الذي اقترح عليه تصنيفها ، ولا يعقل أن يكون أبو منصور هذا حفيد الخيام الخراساني صاحب الرباعيات لأن الخراساني كان معاصراً للرئيس ابن سينا وتلميذاً له وعلى كل حال فهذا الكتاب الصغير نموذج للعالم الشرقي الذي لو أتبع له الاستمرار في طريقه حتى يدرك عصر الطباعة فالبخار والكهرباء لكان له شأن غير شأنه

(القاهرة) محب الدين الخطيب



« لا يتعادل الحب بين اثنين ؛ بل يكون قوياً في احدهما ، وهذا الذي يتألم ، وضعيفاً في الآخر ، وهو الذي يضر

« إرباً بنفسك أنت تكون الحبيب الذي يلي حياً جاراً أو ظمياً ؛ لان النار يؤخذ منك وأنت بريء من الدنب

